الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

The Engineer's Thumb

إبهام المهندس

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

9

مغامرات شارلوك هولمز

The Engineer's Thumb

إبهام المهندس

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند
آذار 1892

ترجمة: سليمان حسون
مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمة

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته العقلية، وتفكيره من أجل الوصول إلى حل كل لغز

اشـتركت فيـه. وكأنَّهـا (أي شـخصية هولـمز) كانـت تحـث القـارئ دومـاً وتحفـزه للوصـول إلى الحقيقـة، أو حـل اللّغـز المطروح بشكلٍ يجعل القـارئ يضطر لاستخدام كل ملكاته الفكريَّـة والعقليـة للوصـول مـع هولمز وواطسـون إلى حقيقة الأمـر، أو حتَّى أن يسـبقهما في التَّوصل للحقيقـة. الطَّريف في شـخصية هولـمز أنَّهـا وعـلى الرغم مـن أنَّها تقـدِّم لنا شـخصاً مـن لنـدن في نهايـة القـرن التَّاسـع عـشر إلا أنَّهـا مـن خـلال طريقـة تعاملهـا مـع مـا حولهـا ومـن حولهـا تبـدو شـخصية أكثـر معـاصرة وكأنَّ كونـان دويـل نجـح بتحويلهـا إلى شخصية خارج إطار زمان محدد.

الأهـم مـن شـخصية هولـمز التـي تتسـيَّد كل قصـص كونـان دويل هي شـخصيَّة كاتبهـا التي تشي بشـخص عاش حياتـه كتجربـةٍ عظيمـةٍ تمكَّـن إلى أقصى حـد في تصويرها من خـلال شـخصية هولـمز، أحيانـاً وشـخصية د. واطسـون بصـورةٍ أكـبر وأكثر جـلاء. كما تمكَّـن الفنان سـيدني باجيت مـن ابتـداع صـورة نمطيـة محـدَّدة ومشـوِّقة للسـيد هولـمز في أذهاننـا، مـع مواكبـة قصـص كونان دويـل برسـومات جميلة جعلـت صـورة هولـمز المرتـدي لقبعتـه المميـزة. وغليونـه الجميل، صورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل
مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولد الطبيب والروائي البريطاني السير آرثر كونان دويل في أدنبرة باسكتلندا سنة 1859، واشتهرت الشَّخصية التي ابتدعها «شارلوك هولمز» لرجل التَّحري الذَّكي القادر على فك ألغاز الجرائم، معتمداً على امكاناته الذِّهنية وقوة الملاحظة، واتباع طريقة الملاحظة والتَّحليل والاستنتاج بالاعتماد على العلم والمنطق، هذه الشَّخصية التي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقد مُثلت العديد من رواياته وقصصه، وتحوَّلت إلى أفلام سينمائية وأفلام كارتونية. وقد هجر السير آرثر دويل مهنة الطّب بعد أن مارسها ثماني سنوات، واتَّجه إلى الأدب، واستطاع أن يبدع فيه. بدأ حياته الأدبية سنة 1887 بكتابة القصص القصيرة للمجلات بهدف زيادة دخله. يقول النَّاقد كريستوفر مورلي عن شارلوك هولمز: لم يحدث أبداً أن نالت شخصيَّة روائيَّة هذا الحظ من القدرة على امتاع القرَّاء والالتصاق بهم بمثل ما نالت شخصية شارلوك هولمز. فالسير آرثر دويل بعد أن مارس مهنة الطّب في

عيادته التي لم يكن يزورها إلا النُّزر اليسير من المرضى، كان يجد أوقاتاً كبيرة من الفراغ، شغلها بكتابة القصص القصيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّه وبعد نشر روايته الأولى عن شارلوك هولمز سنة 1887 أخذ نجمه في الصّعود. وبلغت مجموع القصص والرِّوايات التي كتبها السير آرثر دويل وظهرت فيها شخصية شارلوك هولمز حوالي 60 عملاً، جُلَّها من القصص القصيرة، حتَّى أصبح السير آرثر دويل من أكثر كتَّاب القصَّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظراً لجهوده في دعم الحكومة البريطانية في حرب البوير «1899 - 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شخصيَّة خياليَّة لمحقِّق من أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطَّبيب الاسكتلندي سير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّخصية لأول مرة في 1887، واشتهرت الشَّخصية بمهارتها الشَّديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا، وقد يكون هو أشهر محقِّق خيالي في العالم، وهو بالفعل أحد

أكثر الشَّخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتب كونان دويل أربع روايات، وستاً وخمسين قصَّة قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدَّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من هذه القضايا الصَّغيرة، مُركِزَةً على القضايا المشوِّقة التي تتطلَّب منه القيام بتحريك ساقيه فعلاً. يتخصَّص هولمز في حل القضايا الغريبة مستخدماً قواه الاستثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشكلٍ دائم في الوسائط الإعلامية المختلفة مرتدياً قبعة صائد الأيائل وعباءته، مُدخناً غليوناً، وممسكاً بعدسةٍ مكبرة. ويوصف هولمز بأنَّه سيدٌ إنجليزي من الطِّراز الفيكتوري، طويلٌ ورشيقٌ، له عينان حادَّتان دقيقتان، وأنف معقوف. بالرُّغم من قامته النَّحيلة فإنَّ

قدراته البدنيَّة عالية. هو ملاكمٌ ومبارزٌ ماهرٌ، وعادة ما يتغلَّب على خصومه في المرات القليلة نسبيَّاً التي اضطر فيها للاشتباك جسديَّاً. وفي مغامرة إكليل العقيق يقول هولمز أنَّه: (يمتلك قوة استثنائية في أصابعه). أمَّا في مغامرة المنزل الفارغ فيذكر أنَّه: (يمتلك القليل من المعرفة حول المصارعة اليابانية). كان يعيش هولمز في لندن شارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصه، دراسة بالقرمزي، قُدِمَت بعض المعلومات عن خلفية هولمز. قُدِم في 4 آذار 1881 على أنَّه طالب كيمياء مستقل، له مجموعةٌ واسعةٌ من الاهتمامات الجانبية، وتقريباً؛ فإنَّ كل هذه الاهتمامات تصب في مجرى مساعدته ليصبح خارقاً في حل الجرائم. في مغامرة أخرى مبكِّرة بعنوان مغامرة غلوريا سكوت، تتضح الأسباب التي دعت هولمز إلى العمل كمحقق خاص؛ امتداح والد زميله في الكلية الشَّديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامرة المترجم الإغريقي، يقول هولمز: أنَّ جدَّته كانت شقيقة الرَّسام الفرنسي فيرنو. وفي دراسة بالقرمزي، يضع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتبر شارلوك هولمز أيضاً مُحلِّل شفرات كفء،

ويقـول لواطسـون: أنا متآلف مـع كل أشـكال الكتابة السريَّة بشـكل جيـد، وأنـا نفـسي مؤلـف كتـاب ثانـوي حـول الموضـوع، حللـت فيـه مائـة وسـتين شـفرة منفصلـة. حُلت إحـدى الشَّـفرات في مغامـرة الرِّجـال الرَّاقصـين، التـي استخدمت سلسلة من الأشكال الأوليَّة.

كـما أظهر هولمـز نفسـه كأسـتاذ في التَّنكر بعـد أن تنكر في أشـكال مختلفـة خـلال مغامـرات: بحـار (علامـة الأربعـة) وسـائس خيـل، ورجـل دين (فضيحـة في بوهيميـا)، ومدمن أفيـون (الرَّجل ذو الشـفة المقلوبـة)، ومتبطل عـادي (مغامرة إكليـل العقيـق)، وكاهـن إيطـالي عجـوز (مغامـرة المشـكلة الأخـيرة)، وبائـع كتـب (مغامـرة البيـت الفـارغ)، وعامـل تمديـدات صحيَّـة أو سـبَّاك (مغامـرة تشـارلز أغسـطس ميلفيرتـون)، ورجـل محتـضر (مغامـرة المحقِّـق المحتـضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكـن اعتبـار هولمـز رائـداً في علـم الأدلَّـة الجنائيَّـة الحديـث لاسـتخدامه هذا العلـم في قضاياه، مثـل: تعرفه على الفروقـات بـين أنـواع الآلات الكاتبـة لفضـح الاحتيـال (قضيـة هويـة). وتوصلـه إلى جريمـة باكتشـافه قطعتـين من البقايـا البشريـة (مغامرة صنـدوق الورق). وملاحظتـه لبقايا

بـارود عـلى الضحيـة (مغامـرة ميـدان ريغـاتي). وملاحظتـه نـوع الرَّصـاص المسـتخدَم في جريمتـين (مغامـرة البيـت الفـارغ). واسـتخدامه بصمـة الأصابـع لتحرير رجـل بريء (مغامرة باني نوروود).

عـاش شـارلوك هولـمز تاريخيـاً، في B 221 شـارع بيكـر، لنـدن منـذ 1881، حيـث أمـضى العديـد مـن سـنواته المهنية مـع صديقـه الحميـم دكتور واطسـون، الذي تشـارك الشـقة معـه قبـل زواج واطسـون في 1890. وكانـت تـشرف عـلى صيانـة الشـقة والاهتـمام بهـا السـيدة مارثـا هدسـون، مالكة البنايـة. وقـد وصـف دويـل الحـي الـذي يعيشـان فيـه بدقة، حتَّـى أنَّ الكثيريـن من القرَّاء زاروا شـارع بيكـر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومـن أبـرز الشَّـخصيات التـي ظهـرت في حياة شـارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسـون؛ صديـق هولـمز الحميـم، وكاتـب سـيرته الذَّاتيَّة، كـما أنَّـه يقـوم بتسـجيل معظـم قضايـا هولـمز. وفي القصـص الأخـيرة ينتقـد هولـمز واطسـون دائـماً لأنَّـه يـروي

القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء كرجل يميل إلى النّساء، يتكلَّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطَّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي
«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان

دويـل أنَّ موريـارتي وحـده من سـقط في الشَّـلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المـرأة الوحيـدة التـي أبـدى هولـمز اهتمامـاً بهـا. وتبعـاً لما قالـه واطسـون، فـإنَّ هولـمز كان يشـير إليهـا دائـماً باعتبارها (المـرأة). بالرُّغـم مـن أنَّ هولـمز نفسـه لم يسـتخدم هـذا المصطلـح، عـلى أنَّه ذكر اسمها الفعـلي عدَّة مـرات في قضايا أخـرى. وهي أيضـاً واحدة من النِّسـاء القلائـل اللائي ذُكرن في قصـص شـارلوك هولـمز، بالرُّغم مـن أنَّها ظهـرت فقط في قصـة فضيحـة في بوهيميـا، إلا أنَّهـا غالبـاً مـا اعتـبرت المـرأة الوحيـدة التـي كـسرت تحفُّـظ هولـمز. وهـي المـرأة الوحيـدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّـقيق الأكـبر لهولـمز، الذي يمتلـك قوى تحليليـة تفوق حتَّـى تلـك التـي يتمتَّـع بهـا شـقيقه الأصغـر. وبالرُّغـم مـن ذلـك فـإنَّ مايكروفـت غـير قـادر عـلى أداء عمل تحرٍ مشـابه لعمـل شـارلوك، لأنَّـه لا ينـوي بـذل أي جهـد جسـدي

ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

إبهام المهندس

من بين كل المشاكل أو القضايا التي تولاها صديقي شارلوك هولمز وقام بحل غموضها خلال بدايات علاقتنا المميزة كان هناك قضيتان تولاهما بعد أن جئت أنا بهما إليه. إحدى تلك القضايا كانت قضية أو مغامرة إبهام المهندس وقضية جنون الكولونيل ووربورتون.

فقد وقعت أحداث قضية إبهام المهندس والتي أنا على وشك تلخيصها في صيف العام 1889، وذلك بعد زواجي بفترةٍ وجيزةٍ. في تلك الفترة كنتُ قد عدتُ لمزاولة مهنة الطّب في عيادة خاصّة بي، وانتقلتُ من السّكن مع شريكي وصديقي شارلوك هولمز في شارع بيكر. ومع ذلك بقيتُ أزوره بانتظام وبشكلٍ مستمر. وكانت أوضاع عيادتي قد بدأت بالتّحسن تدريجياً مع نجاحي في معالجة المرضى بشكلٍ جيّد وانتظامي في عملي. كما ساهم قرب محطة

بادنغتـون مـن عيادتي بتحوُّل قسـم كبـير من موظفـي المحطّة إلى مراجعـين في عيـادتي ، وأخـذ أحدهـم، وهـو شـخص عالجتـه مـن مـرضٍ مُزمـن، يعلـن للملأ عـن خصـالي الجيِّدة كطبيـب وإنسـان، سـاعياً لكـي يرسـل إلى عيـادتي كل مـن يعاني ممن هم في محيطه.

استيقظتُ يـوم أحـد على طـرق الخادمـة للبـاب في وقتٍ مبكّـرٍ قبـل السّـابعة صباحـاً، وأخبرتنـي بقـدوم رجلـين من محطّـة بادنغتـون وقالـت لي أنّهـما ينتظـران في غرفـة المعاينـة. ارتديـت ملابسي عـلى عجـل لمعرفتـي بحكـم التّجربـة أنّ حـالات موظفـي السِّـكك الحديدِّيـة غالبـاً مـا تكـون جديّـة وخطـيرة. بعـد أن انتهيـتُ مـن ارتـداء الملابـس نزلـتُ إلى العيـادة بسرعـةٍ وفيـما كنـتُ متّجهـاً إلى الطّابق السُّـفلي خرج زبـوني القديـم من الغرفـة وأغلـق الباب خلفـه بإحـكام، ثمَّ همـس قائـلاً وهـو يشـير بإبهـام يـده اليمنى فـوق كتفـه: لقد أحضرته إليك، إنّه بخير الآن.

مـا فهمتـه مـن تصرفـه أنّه قـد قام بحبـس مخلـوق غريب في غرفة الكشف الطبّي الخاصّة بي، فسألته: ما الأمر؟

فهمـس مجـدّداً: إنّه مريض جديـد. لقد فكّـرت بإحضاره إليـك بنفسـي حتـى لا يتهـرّب مـن العـلاج، وها هـو الآن في

الداخـل بخيرٍ وأمان. يجـب أن أنصرف الآن يـا دكتور فلدي من الواجبات الشّيء الكثير مثلك تماماً.

ثـمّ توجّـه خارجـاً دون أن يسـمح لي بتقديـم الشُّـكر لـه لكونه زبون وفيّ ومخلص.

دخلـت إلى غرفـة المعاينـة لأجد شـاباً يجلـس بالقرب من الطّاولـة وقـد ارتـدى بذلـةً مـن الجـوخ المنقّـط، ووضـع على رأسـه قبّعة مـن القماش النّاعم. كان لباسـه يشي بأنّه شـخصٌ محافـظٌ تمامـاً. مـا أن دخلـتُ حتّـى خلـع القبعـة عـن رأسـه ووضعهـا فـوق كتبـي عـلى الطّاولـة. كانـت إحـدى يديـه ملفوفـةٌ بمنديـل عليـه بقـع مـن الـدّم. كان شـاباً لا يتجـاوز الخامسـة والعشريـن مـن العمـر، يتمتّـع بوجـه ذو ملامـح قويّـة، لكنّـه بـدا شـاحباً جـدّاً ما ولَّـد لـدي انطباع أنّـه يعاني اضطراباً شديداً تطلَّب منه كل تركيزه ليتحكّم به.

قال: أنا آسف لحضوري في هذا الوقت المبكِّر جدّاً يا دكتور، لكن حادثة خطيرة جداً وقعت لي خلال اللّيل الفائت ولهذا جئتُ بالقطار هذا الصّباح. وحين سألتُ في محطة بادنغتون عن طبيب، تكرّم شخصٌ نبيلٌ باصطحابي إلى عيادتك، وقد أعطيت الخادمة بطاقتي التّعريفيَّة لكن يبدو أنّها وضعتها على تلك الطّاولة الصّغيرة ولم تسلمها لك.

أخـذتُ البطاقـة وتمعَّنـتُ فيهـا فقـرأت: السـيد فيكتـور هايثـرلي، مهنـدس ميكانيـك، العنـوان 16 (أ) شـارع فيكتوريا، الطّابق الثالث.

كانـت تلـك كل مواصفـات زائـري في الصّبـاح الباكـر إضافـةً إلى اسـمه وعنوانـه. قلـت لـه وأنا أجلـس على كرسي المكتـب: أعتـذر لأنّي جعلتُـكَ تنتظر فـترةً طويلةً. يبـدو أنّك وصلـت للتـو مـن رحلـةٍ ليليّةٍ كـما فهمـت، وعادة مـا تكون هذه الرّحلات مملة للغاية.

فأجـاب قائـلاً: آه، لا يمكننـي القـول بـأنّ ليلتـي كانـت مملـة. ثـمّ ضحـك بقـوّةٍ وبصـوتٍ قـوي ومرتفـع جـدّاً وهو يميـل على الكـرسي إلى الخلـف وقد أخـذ جسـمه بالاهتزاز، مـا اسـتفز غريـزتي الطبيّـة ضـد هكـذا نـوع مـن الضّحـك لأصيح قائلاً: أرجوك توقف، عليك أن تتمالك نفسك!

ثـم ناولتـه كأسـاً مـن المـاء لكـن دون فائـدة، فقـد بـدأ بضحكـةٍ هسـتيريةٍ جديـدةٍ، وكأنّه أحد الشّـخصيات الكبيرة يمـر بأزمـة أو محنـة رهيبـةٍ لا يعـرف كيـف يخرج منهـا. بعد حـين عـاد إلى طبيعتـه الهادئة مرةً أخـرى، لكنّه بـدا متعباً جداً وشديد الشحوب.

شهق بعمق وقال: لقد تصرّفتُ بحماقةٍ.



- لا، على الإطلاق. تفضّل اشرب الماء.

بـدأ اللّون يعود إلى خديه الشّـاحبين وقـال: هكذا أفضل، أفضـل بكثـير. والآن يـا دكتـور أرجـو أن تُعايـن إبهامـي أو بشكل أكثر دقة المكان الذي كان يوجد فيه إبهامي.

ثمّ قام بحلّ المنديل ورفع يده بوجهي لتهتز أعصابي الثّابتة عادةً وأنا أرى أربعة أصابع تصطف بجانب سطح لحمي بشع لونه أحمر وشكله إسفنجي في المكان، حيث يجب أن يكون

الإبهام الذي يبدو أنَّه بُتر أو اقتلع من جذره!

صحت قائلاً: يا إلهي! هذه إصابةٌ رهيبةٌ، لا بد أنّك نزفت كثيراً.

- نعم، بالفعل، كما أني فقدت الوعي عندما وقعت الحادثة، وأعتقد أنّي غبتُ عن الوعي لفترةٍ طويلةٍ. وعندما استعدتُ وعيي ووجدتُ أنّ الجرح ما زال ينزف، قمت بربط أحد أطراف منديلي حول الرسغ بشدّة وثبته إلى الأعلى بغصنٍ رفيع.

- ممتاز، أديتَ عملاً كما لو أنّك جرّاحٌ ماهرٌ.

- إنّ للأمر علاقة بحركة السّوائل كما تعرف وهذا من ضمن اختصاصي.

فقلتُ فيما كنتُ أتفحّص الجرح: لقد أُصِبتُ بواسطة أداة حادَّةٍ وثقيلةٍ جدّاً.

- إنّه شيء أقرب ما يكون لسكينٍ كبيرٍ أو ساطور.

- إنّ الأمر حادثة على ما أعتقد؟

- أبداً.

- ماذا إذن؟ هل تعرّضت لاعتداء جرمي؟

- إجرامي جدّاً.

- إنّك تخيفني.

مسحتُ الجرح ونظّفتهُ جيِّداً ثمّ ضمدته، وأخيراً قمتُ بتغطيته بقطعةٍ من القطن والضمادات المعقمة. كان الرّجل في الأثناء مستلقياً دون حراك، لكنَّه أخذ يعض على شفتيه من الألم بين الحين والآخر وعندما انتهيت سألته: ما رأيك بما قمت به من أجلك؟

- ممتاز. أشعر الآن وكأنّني شخصٌ جديد، فقد كنتُ أشعر بضعفٍ شديد، لكنّي تجاوزتُ الكثير من الصّعاب في حياتي.

- ربما من الأفضل ألا تتحدّث عن الأمر، فمن الواضح أن هذا سيشكل ضغطاً كبيراً على أعصابك.

- آه، هذا غير ممكن حالياً، فأنا مُضطّرٌ لسرد قصّتي للشّرطة، ولولا هذا الجرح الذي يصلح كدليلٍ مُقنع لما حدث بالفعل لكنتُ فوجئتُ إذا هم صدّقوا كلمةً واحدةً من قصتي. إنّها قصّة غريبة جداً ولا أملك أي دليل يدعم كلامي، وحتّى لو صدّقتني الشرطة فالأدلة التي أستطيع تقديمها لدعم القضية غامضةٌ جدّاً وغير مفهومة، لدرجة أعتقد فيها جازماً أنّ العدالة لن تتمكّن من أخذ مجراها في هذه القضية.

هتفتُ قائلاً: إذا كانت معضلة أرغب بحلها فإنّي أنصحك بأن تلجأ إلى صديقي السّيد شارلوك هولمز قبل الذّهاب إلى الشرطة.

أجاب مريضي: آه، لقد سمعت بهذا الرّجل من قبل وسوف يكون من دواعي سروري أن يتولّى هو هذه القضية بنفسه، هل يمكن أن تعطيني بطاقتك التّعريفية لأُقدِّمها له؟

سوف أقوم بأفضل من ذلك. سوف أرافقك وآخذك إليه بنفسي.

- سأكون بغاية الامتنان لك يا سيدي.

- حسناً إذن، سنطلب عربة أجرة ونذهب معاً، وهكذا نصل في الوقت المناسب لتناول إفطار بسيط معه. هل تشعر بأنّك قادرٌ على ذلك؟

- نعم، فأنا لن أشعر بالاطمئنان أو الرّاحة حتى أروي قصّتي.

- حسناً إذن، سوف يطلب خادمي عربة أجرة وسأكون معك بعد لحظة.

ثمّ أسرعتُ إلى الطّابق العلوي لأخبر زوجتي الأمر

باختصار. وخلال خمس دقائق كنت برفقة الرجل الذي تعرّفت للتّو عليه في عربةٍ صغيرةٍ متّجهةٍ إلى شارع بيكر.

وكما توقّعت كان شارلوك هولمز مستلقياً بكسل في غرفة الجلوس وقد ارتدى ملابس المنزل المريحة، وانهمك بقراءة صفحة الإعلانات الشّخصية في جريدة التّايمز.

استقبلنا بهدوئه ولطفه المعتاد، وطلب كميّةً إضافيّةً من شرائح اللّحم والبيض، ثم تشاركنا جميعاً وجبة إفطار غنيّة.

بعد أن انتهينا من الإفطار دعا هولمز ضيفنا للاستلقاء والاستراحة على الأريكة، ووضع له وسادة تحت رأسه وكأساً من الماء بالقرب من متناول يده، ثم قال: من الواضح أنّ التّجربة التي مررت بها لم تكن عاديّة يا سيد هاثرلي. أرجو أن تستريح هنا على الأريكة وتعتبر نفسك كما لو أنّك في بيتك. بعد ذلك يمكنك أن تُخبرنا بمقدار ماتستطيع ولك أن تتوقّف عندما تشعر بالإرهاق أو التّعب.

فقال الضّيف المريض: شكراً لك، لكنّي أشعر بأنّ حالتي أفضل بعد أن قام الطّبيب بتضميد جرحي، كما أعتقد أنّ إفطارك الذي تكرّمت به قد جعلني بوضع أفضل بكثير من السّابق. سوف آخذ من وقتك الثّمين أقل قدر ممكن وسأبدأ على الفور بقص حكايتي الغريبة عليك.



جلس هولمز بتكاسل على مقعده الكبير المريح وعينيه نصف المغلقتين تخفيان طبيعته اليقظة دوماً لكن بتهذيب، فيما جلستُ أنا على الكرسي المقابل، وأخذنا نستمع بصمتٍ إلى القصّة الغريبة فعلاً التي روى زائرنا تفاصيلها علينا كالتّالي:

قال ضيفنا: يجب أن تعرفا أولاً أنّني يتيم وأعزب وأقطن لوحدي في منزل بلندن. إنّي مهندس ميكانيك هيدروليكي وقد أصبح لدي خبرة كبيرة خلال السَّنوات السّبع الماضية حيث تدرّبتُ في شركة فينر وماثسون المعروفة في منطقة

غرينتش. انتهيتُ من تدريبي منذ عامين، وأصبح دخلي أفضل ،كما حصلت أيضاً على مبلغ جيِّد من المال بعد وفاة والدي. عندها قرّرتُ أن أبدأ عملاً خاصّاً واستأجرتُ مكتباً في موقع مناسب للعمل في شارع فيكتوريا.

لا بد أنّ كل شخص يجد الأمر مُملاً عندما يبدأ عملاً مستقلاً، وبالنّسبة لي كان الأمر مُملاً لدرجةٍ كبيرةٍ، فخلال عامين لم أتمكّن من الحصول سوى على ثلاثة استشارات ومهمّة صغيرة واحدة فقط. وكان هذا كل ما عملته طوال سنتين، وقد بلغ مجموع ما جنيته خلالها سبعة وعشرون جنيهاً وعشرة شلنات. كنتُ أنتظر كل يوم في مكتبي من التّاسعة صباحاً حتّى الرّابعة بعد الظّهر، حتّى بدأتُ أقتنع أخيراً أنّه كان من الخطأ أن أفتح مكتباً خاصّاً بي.

يوم أمس وفيما كنت أهم بمغادرة المكتب دخل سكرتيري ليخبرني أنّ سيداً محترماً ينتظر الإذن بمقابلتي بخصوص عمل ما، وقدم لي بطاقة تعريف مطبوع عليها اسم الكولونيل ليساندر ستارك. بعد ذلك دخل الكولونيل بنفسه. كان رجلاً متوسط الحجم لكنّه نحيلٌ للغاية، بحيث لا أعتقد أنّي رأيت رجلاً بمثل نحافته من قبل، فقد بدا وكأنّ وجهه قد تحوّل إلى أنفٍ وذقنٍ حادين، فيما بدت

بشرة خدّيه مشدودة جداً فوق عظام وجهه النّاتئة. لكن كان واضحاً أنّ نحافته طبيعية وليست ناتجة عن مرضٍ خطيرٍ أو ما شابه، فقد كانت عيناه تلمعان بحيويّةٍ وبدت خطواته سريعة ورشيقة وتصرفاته واثقة. كانت ملابسه بسيطةً لكنّها مرتبة، وكان يبلغ من العمر على ما أعتقد أربعين عاماً أو أكثر من ثلاثين عاماً.

تقدّم نحوي وتحدّث الانكليزية بلكنةٍ ألمانيّةٍ واضحةٍ: لقد تمّ ترشيحك لي يا سيد هاثرلي، ليس لكونك ماهراً فحسب بل لأنّك شخصٌ ملتزمٌ أيضاً وقادر على كتم الأسرار.

فانحنيتُ وأنا أشعر بالفخر كأي شاب يستمع إلى هذا المديح، وقلتُ له: هل يمكنني أن أسأل من رشّحني لك ياسيدي؟

- حسناً، ربما من الأفضل ألا أخبرك بذلك في الوقت الحاضر. كما أنّني عرفتُ من المصدر نفسه أنّك يتيمٌ وأعزب وتعيش في لندن بمفردك.

أجبته قائلاً: هذا صحيح تماماً، لكن اعذرني لو قلت لك لا أعرف كيف يمكن لهذه التّفاصيل أن تكون مهمّة في عملي، فقد فهمتُ أنّك تريد لقائي من أجل عملٍ ما.



- بلا شك، لكنَّك ستعرف أنّ كل ما أقوله لك هو جزء مهم من الموضوع الذي جئتُ من أجله. أنا أعرض عليك عملاً لكن السريّة المطلقة شرط أساسي فيه. السريّة المطلقة، هل تفهم ما أعنيه؟ وبالطّبع أتوقّع ذلك من شخص وحيد أكثر مما أرجوه من شخص يعيش في أحضان عائلته.

فقلت: إذا وعدتُك بكتمان الأمر، يمكنك أن تعتمد على وعدي فأنا عادة أحافظ على وعودي.

نظر إليّ بحدَّةٍ شديدةٍ فيما كنت أتكلّم وكان الشّك يملأ عينيه. أنا لم أقابل في حياتي رجلاً يشك بالآخرين إلى هذه الدّرجة، وبعد انتظار قال: هل تعدني بكتمان الأمر بشكلٍ مطلق؟

- نعم، أعدك بذلك.

- الكتمان المطلق والكامل، قبل المهمة وأثناءها وبعدها؟ وأن لا تشير إلى الموضوع من قريب أو بعيد مطلقاً سواء بالكلام أو بشكلٍ مكتوب؟

- لقد أعطيتك وعدي على هذا.

فقال: إذن، هذا ممتاز. ثمّ هبَّ واقفاً وانطلق باتّجاه الباب فجأةً وفتحه.



كان الممر أمام الباب خالياً. عاد إلى مكانه بعد أن تأكّد من خلوه وقال: كل شيء بخير، فأنا أعرف أنّ الموظفين قد يكونوا فضوليين لمعرفة أمور مدرائهم. والآن نستطيع أن نتحدّث بحريّةٍ.

سحب كرسيه فاقترب مني إلى درجةٍ كبيرةٍ ثمّ عاد يحدِّق بي بتلك النّظرة المتفحِّصة المليئة بالشّك. فانتابني شعورٌ كريه وأخذ الخوف يتسلَّل إلى نفسي بسبب تصرفات هذا الرّجل الهزيل الغريبة، وحتّى خوفي من فقدان زبون أنا بأشد الحاجة له لم يردعني من إظهار نفاذ صبري لهذا الأمر، وقلت له: أرجو أن تخبرني عن المَهمّة المطلوبة مني يا سيدي، فوقتي ثمين.

كان هذا جل ما قلته لزائري الغريب، وليغفر الله كذبتي هذه. فسألني: هل يناسبك خمسون جنيهاً كأجر في اللّيلة الواحدة؟

- طبعاً يناسبني. إنّه ممتاز.

- أقول لك عمل ليلة واحدة، وإن كانت المهمة لن تستغرق أكثر من ساعة في حقيقة الأمر. فأنا أريد رأيك بمكبسٍ هيدروليكي لا يعمل بشكلٍ جيِّد. وإذا تمكّنتَ من معرفة سبب العطل وأخبرتنا به فسوف نقوم بإصلاحه

بأنفسنا. ما رأيك بهذه المَهمّة؟

– تبدو سهلة وأجرها مرتفع.

– بالضّبط، نريدك أن تأتي إلينا اللّيلة في الرحلة الأخيرة للقطار.

– إلى أين يتوجّب عليّ الذّهاب؟

– إلى بلدة آيفورد في مقاطعة بيركشاير. إنّها بلدةٌ صغيرة بالقرب من حدود أوكسفورد شاير، وتبعد سبعة أميال عن ريدينغ. إذا أخذتَ رحلة القطار من محطة بادنغتون فسوف يوصلك إلى هناك حوالي الحادية عشرة والربع.

– ممتاز.

– وسأحضر في عربةٍ لاستقبالك.

– أمامنا مسافة لنقطعها بالعربة إذن؟

– نعم، إنّ منزلنا الصّغير في الريف، فهو يبعد سبعة أميال عن محطّة آيفورد.

– إذن لن نصل إلى المكان قبل منتصف الليل، فهل أجد قطاراً في رحلة العودة في ذلك الوقت أم أنّي سأضطّر إلى قضاء اللّيل هناك؟

– يمكننا تدبير مكان لنومك هناك بسهولة.

- هـذا غريـب جـدّاً، ألا يمكـن أن أذهـب بوقـتٍ أفضل من هذا التّوقيت؟

- لقـد قرّرنـا أنّـه مـن الأفضـل أن تـأتي في وقـت متأخّـر وسـوف ندفـع لـك، بـما أنّـك شـابٌ غـير معـروف، أجـراً نسـتطيع بهـا شراء رأي أكـبر خـبراء مهنتـك، وذلـك لتعويضـك عـن أي إزعـاج. لكـن بالطّبـع إذا أردتَ الانسحاب من هذا العمل فالقرار يعود لك.

فكّـرتُ بالجنيهـات الخمسـين التـي سـأجنيها مـن هـذه المهمّـة التـي تبـدو سـهلةً في ظاهرهـا، فقلـتُ لـه: لا، أبـداً. سـيكون من دواعـي سروري أن أتكيّف مع مـا يريده الزّبون، لكنّي أرجو أن أفهم ماذا تريد مني أن أفعل.

- بالضّبـط، مـن الطّبيعـي أن تثير السرية التـي يُحاط به أي موضـوع فضولك، وليسـت لـدي أي نية بإلزامـك بأي شيء دون أن تعـرف التّفاصيـل. هـل يمكننـي الافـتراض أنّـه لا يوجد هنا من يتنصت علينا؟

- طبعاً.

- إنّ الوضع كالتّالي: أنت تعرف مسحوق تبييض الملابس. إنّه منتجٌ ثمين لا يوجد في انكلترا إلا في أماكن قليلة.

- أعرف ذلك.

- وقد قمتُ أنا بشراء أرضٍ صغيرةٍ منذ زمنٍ قصيرٍ وهي أرضٌ صغيرةٌ جدّاً، تبعد عن ريدنغ عشرة أميال. لقد حالفني الحظ فاكتشفتُ ترسبّات لمسحوق تبييض الملابس في أحد حقولي، وعندما فحصته وجدتُ أنّ تلك البقعة الصّغيرة نسبيّاً وهي تقع بين حقلين أكبر بكثير على يمينها ويسارها وكلاهما يقعان في أرض جيراني. إنّ أولئك النّاس الطّيبون أصحاب الحقلين لا يعلمون عن هذا الأمر شيئاً، ويجهلون أنّ أرضهم تحوي بداخلها ما تعادل قيمته منجماً للذّهب، وبطبيعة الحال رغبتُ في شراء أراضيهم قبل أن يعرفوا القيمة الحقيقية، لكن من سوء حظي أنّي لا أملك ما يكفي من المال الذي يؤهلني لشراء الأرض، فقمتُ باستشارة بعض الأصدقاء المقرّبين فاقترحوا أن نقوم باستخراج مخزوننا الصّغير وبيعه بسريّةٍ وهدوء، وبهذا نستطيع أن نجني ما يكفي من المال لشراء الحقول المجاورة. وهذا ما نقوم به الآن وقد بدأنا به منذ بضع الوقت، وقمنا لأجل هذه الغاية باستخدام مكبسٍ هيدروليكي حتّى يساعدنا في مهمّتنا. وقد تعطّل المكبس كما أسلفت ولهذا نريدك أن تساعدنا بشأنه. ولأنّنا نريد أن

نحافظ على سريّة نشاطنا جئت إليك أنت طلباً للمساعدة لأنّ النّاس إذا شاهدوا مهندساً ميكانيكياً يزور منزلي الصّغير سوف يبدؤون على الفور بالتّساؤل عن السّبب وعندها سوف تُعرف الحقيقة ونفقد الفرصة بشراء الأرض وبالتّالي تفشل كل خططنا. من أجل ذلك، جعلتك تعطيني عهداً بأنّك لن تبوح لأي مخلوق بزيارتك إلى آيفورد اللّيلة. أرجو أن أكون قد أوضحت كل شيء.

قلت له: لقد فهمتُ ما تريده بالضّبط، لكن النقطة الوحيدة التي لم أفهمها هي دور المكبس الهيدروليكي في استخراج المبيض، فهو يُستخرج بالحفر كما فهمت؟

فقال بلا مبالاة: آه، إنّنا نتبع طريقة خاصة. فنحن نقوم بضغط التراب حتّى يتحجّر وذلك من أجل أن ننقله دون أن يعلم أحد أننا نفعل ذلك. على كل حال هذا الأمر ليس سوى شيء ثانوي. أعتقد يا سيد هاثيرلي بأنّي أظهرتُ لك من الثقة بك ما يكفي في هذا الأمر. أرجو أنت أن تثق بي.

ثمّ نهض وهو يقول: سأنتظرك إذن في السّاعة الحادية عشرة والربع.

– ستجدني في الموعد المحدّد بالتّأكيد.

- إيّاك أن تخبر أحداً عن هذا الأمر.

قال ذلك ورمقني بنظرةٍ متشكِّكةٍ أخيرة لكن طويلة هذه المرّة، ثمّ أمسك بيدي وضغط عليها بقبضته الباردة وخرج من الغرفة بسرعة.

حسناً، عندما أفكّر بالأمر الآن بهدوء، أجد أنَّني كنت مندهشاً جداً بهذه المهمة المفاجئة التي تمَّ تكليفي بها. فمن ناحية كنت سعيداً جدّاً بالأجر الكبير جداً والمفاجئ الذي وصل إليّ والذي كان يماثل عشرة أمثال ما كنت سأطلبه لقاء خدمة من هذا النّوع، كما أنّ من الممكن أن تتبع هذا الطّلب طلبات أخرى، ومن ناحيةٍ أخرى خلف وجه عميلي وتصرفاته انطباعاً سيِّئاً في نفسي، ولم أقتنع بأنّ تفسيره الخاص بمسحوق مبيِّض الثّياب كان كافياً بالشّكل المطلوب لتبرير ضرورة سفري بمنتصف اللّيل، إضافةً إلى قلقه الشّديد خشية أن أُخبر أحداً بالموضوع. وفي النّهاية، رميتُ شكوكي خلف ظهري وأكلتُ وجبةً ضخمة، ثمّ ركبتُ عربةً حتّى محطة بادنغتون وبدأتُ من هناك رحلتي.

لقد أطعتُ أوامره بكتمان الأمر، وانتقلتُ إلى قطارٍ آخر في محطّة ريدنغ وتمكّنت من اللّحاق برحلة القطار الأخيرة المتَّجهة إلى آيفورد، فوصلتُ إلى المحطّة الصّغيرة المُعتِمة

بعد الحادية عشرة. كنتُ المسافر الوحيد الذي نزل من القطار هناك، ولم أجد على الرَّصيف سوى حمّال متعَب يحمِلُ بيده مصباحاً، فعبرتُ إلى البوابة الصّغيرة ،ووجدتُ الشَّخص الذي تعرَّفتُ عليه في الصّباح ينتظرني في مكانٍ مُظلم على الجانب الآخر. وما أن وصلتُ بجانبه حتَّى جذبني من ذراعي دون أن ينبس ببنت شفة طالباً مني الإسراع بالدُّخول إلى العربة التي كان بابها مفتوحاً. وبعد أن أصبحنا بداخلها أغلق جميع النّوافذ، وأسدل الستائر ثمَّ طرق في إشارةٍ للانطلاق، فابتعدنا بأسرع ما يستطيع الحصان من قوّة، ثمّ...

قاطعه هولمز قائلاً: حصان واحد؟

– نعم، واحدٌ فقط.

– هل لاحظت لونه؟

– نعم، لقد رأيته على ضوء المصابيح الجانبية وأنا أدخل العربة.

– هل بدا عليه التّعب أم النّشاط؟

– بل بدا نشيطاً ولامعاً.

– شكراً، أعتذر عن المقاطعة. يمكنك أن تكمل سرد

حكايتك الشيِّقة.

- ابتعدنا كثيراً، فقد مرّت ساعة على الأقل ونحن بالعربة وهي تسير، وبالرّغم من أنَّ الكولونيل ستارك قال أنَّ الطَّريق لا يبعد سوى سبعة أميال فقط عن المحطّة فإنّني أعتقد، اعتماداً على المعدَّل الذي كنّا نسير به وعلى الوقت الذي استغرقته الرحلة، أنّ المسافة تزيد عن اثنتي عشر ميلاً.

كان الرجل يجلس صامتاً بجانبي طوال الرحلة، وشعرتُ أكثر من مرَّة حين كنتُ أنظر إليه أنّه كان يرمقني بنظراتٍ شديدة الحِدَّة لكن ليس بشكلٍ مُباشر. كما أنّ الطَّريق كان وعراً، فأخذنا نتمايل ونتخبَّط في العربة، فحاولتُ النَّظر من النَّوافذ لأرى أين كنّا لكنّها كانت من الزُّجاج الكثيف غير الشَّفَّاف ولم أتمكَّن من تمييز شيءٍ سوى اللَّمعان الضّبابي لبعض الأنوار العابرة بين الحين والآخر. ثمَّ جازفتُ بكسر الصّمت القائم، وبدأتُ أقول بعض الملاحظات لنتخلَّص من الملل، لكنّ الكولونيل كان يُجيب بجملٍ مقتضبة فقط، لذلك سرعان ما توقَّفت المحادثة.

وأخيراً تجاوزنا المنطقة السّيئة من الطَّريق وبدأنا نسير

على طريق معبَّدٍ بالحصى كما شعرت، ثمّ توقّفت العربة، وترجَّل الكولونيل، وحين انحنيتُ لأخرج من العربة سحبني بسرعةٍ إلى مدخلٍ مسقوفٍ أمامنا مباشرةً من العربة إلى قاعة منزل. وهكذا لم أتمكَّن من رؤية المدخل ولو للحظة، كما تمَّ إغلاق الباب خلفي مباشرة في اللَّحظة التي اجتزتُ فيها العتبة وسمِعتُ صوت عجلات العربة وهي تبتعد عن المكان.

ساد الظّلام الدّامس داخل المنزل، وأخذ الكولونيل يتلمس طريقه بحثاً عن عود ثقاب وهو يتمتم. وفجأة فُتح باب في نهاية الممر، وظهر شعاع ضوءٍ ذهبي يتَّجه نحونا، ثمَّ اتّسعت مساحة الضّوء بعد أن كانت ضيِّقة وظهرت امرأةٌ تُمسِكُ بيدها مُصباحاً وترفعه فوق رأسها وهي تُحملِقُ بنا. استطعتُ رؤية جمالها، وعَرفتُ أنَّها ترتدي ثوباً أسوداً غالي الثّمن من لمعة الضَّوء عليه.

قالت بضع كلمات بلغةٍ أجنبيةٍ وبنبرةٍ توحي بأنّها تطرحُ سؤالاً، وعندما أجاب الكولونيل بطريقةٍ فظّةٍ ومقتضبةٍ جعلتها تجفل حتّى كاد المصباح أن يسقط من يدها، فاقترب منها وهمس في أذنها ببضع كلمات، ثمّ دفعها إلى داخل الغرفة التي خرجت منها، وتوجَّه إليَّ

حامـلاً معـه المصبـاح وقـال وهـو يفتـح بابـاً آخـر: أرجو أن تتكرّم بالانتظار في هذه الغرفة لبضعة دقائق فقط.

كانت غرفة هادئة وصغيرة مفروشـة بشـكلٍ بسـيط وكان في وسـطها طاولـة مسـتديرة تناثـرت عليهـا مجموعـة مـن الكتـب باللُّغـة الألمانيّـة. وضـع الكولونيـل سـتارك المصباح فـوق آلـةٍ موسـيقيَّةٍ كانـت بجـوار البـاب وقـال: لـن أغيب عنك لفترةٍ طويلةٍ. ثمَّ ذهب واختفى في الظّلمة.

ألقيـتُ نظـرةً عـلى الكتـب الموجـودة عـلى الطَّاولـة، وبالرُّغـم من عـدم مقدرتي على فهـم الألمانيّة عرفـت أنَّ اثنين مـن الكتـب يتحدَّثـان عـن أبحـاثٍ علميَّـةٍ، أمّـا الكتـب الأخـرى فكانـت كتبـاً أدبيَّـةٍ خاصّـة بالشّـعر. بعـد تفحُّص الطَّاولـة والكتـب توجَّهـتُ نحـو النّافـذة بأمـل رؤيـة بعض المناظـر الريفيَّـة الجميلـة لكنَّهـا كانـت مغلقـةً بدرفتـين مـن الخشـب، ومصراعيهـا مغلقـين بإحـكام، وكان رؤيـة المنظـر الخارجي معدومةٌ تماماً.

كان المنـزل هادئاً بشـكلٍ مُثـيرٍ للرِّيبة، ولو لا دقَّات سـاعة مـا في الممـر لـكان الصَّمـت سـيِّد الموقـف بـلا منـازع هناك. بـدأ شـعور بعـدم الرّاحة يتسـلَّل إلى نفسـي، وبدأتُ أتسـاءل مـن يكونـوا هـؤلاء الألمـان؟ ولمـاذا يعيشـون في هـذا المـكان

الغريب والبعيد؟ وأين يقع هذا المكان؟ لقد كنتُ على مسافة عشرة أميال تقريباً من محطَّة آيفورد، هذا كل ما أعرفه، لكنني لا أعرف ما إذا كان ذلك باتّجاه الشّمال أو الجنوب أو الشّرق أو الغرب! ربما أنّ ريدنغ ومدناً كبيرة أخرى قد تكون ضمن هذا المجال، يمكن ألا يكون هذا المنزل في منطقةٍ منعزلةٍ جدّاً، لكنّه يقع في قلب الرّيف بالتّأكيد بدليل هذا السّكون التّام.

أخذتُ أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً، وأدندن أغنيةً بصوتٍ خافتٍ لكي أحتفظ بمعنوياتي عالية وأشعر بأنّي أستحق فعلاً الجنيهات الخمسين. وفجأةً وبدون أن أشعر أنَّ هناك من يقترب من باب الغرفة، فُتح الباب ببطء لأجد المرأة تقف على عتبته وضوء المصباح الأصفر يُلقي بضوئه على وجهها الجميل الذي تعلوه ملامح القلق. أدركتُ فوراً أنّها خائفةٌ جدّاً من شيء ما فدب الرعب في أوصالي. رفعت هي إصبعاً مُرتعشاً لتشير إليّ ألا أُصدر أي صوت، ثمَّ قالت لي بضع كلماتٍ سريعةٍ بإنكليزيّةٍ ركيكةٍ، وعيناها تجوبان الظُّلمة خلف الباب في الممر، وكأنّها خائفةٌ مما يطاردها. قالت وهي تحاول أن تكون هادئةً بقدر ما تستطيع: لو كنتُ مكانك لغادرتُ المكان بسرعةٍ. لا يجب

أن تبقى هنا... لن يكون بصالحك البقاء في هذا المكان.

فقلتُ لها: ولكني لم أؤد المهمّة التي كُلِّفتُ بها بعد وجئتُ من أجل تنفيذها يا سيدتي. وليس من المُمكن أن أغادر قبل أن أرى الآلة.

فتابعت قائلةً: إنّ الأمر لا يستحق انتباهك وتعبك. يُمكنك الخروج من الباب ولن تجد من يمنعك.

وعندما رأتني أهزُّ رأسي مبتسماً تخلَّت عن تحفُّظها وتقدَّمت نحوي قائلةً: اخرج من هنا بالله عليك قبل فوات الأوان.

لكنّي عنيدٌ بطبيعتي، وعادةً ما تزداد رغبتي في المضي بأمرٍ ما إذا وجدت عقبات في طريقي. كما فكَّرت بالجنيهات الخمسين التي سأجنيها، وفي رحلتي الطّويلة المرهقة ، والمسافة البعيدة التي قطعتها وقلت لنفسي: هل أدع كل هذا يذهب بلا ثمن؟ ولماذا أهرب دون أداء مهمّتي التي جئتُ من أجلها؟ وما أدراني أن تكون هذه المرأة مجرّد مجنونة. لذلك وبالرُّغم من الانطباع القوي الذي خلَّفتهُ هذه المرأة لدي، إلا أنّي اتَّخذت قراراً شُجاعاً وهزت رأسي بعدم الموافقة على اقتراحها وقرَّرت البقاء حيث أنا.



لكنّها لم تيأس وكانت على وشك المحاولة معي مجدَّداً حين سمعنا صوت إغلاق بابٍ في الطّابق العلوي وسُمع صوت خطوات تنزل الدّرج، فأرهفتْ السّمع ورفعت يدها بحركةٍ يائسةٍ من إنقاذي ثمّ اختفت فجأةً بدون ضجَّةٍ كما ظهرت.

كان القادمان إلي الكولونيل ستارك وبصحبته رجلٌ قصير وسمين تُغطي وجهه لحيةٌ سميكةٌ، وقد قدَّمه ستارك لي على أنّه السيد فيرغسون. قال الكولونيل: إنّه مساعدي ومدير أعمالي. بالمناسبة، أظن أنّي تركتُ هذا الباب مغلقاً، أخشى أن تكونَ قد تعرّضتَ لبعض البرد بسبب تيار الهواء البارد في الخارج.

فقلت: على العكس، لقد فَتحتُ الباب بنفسي لأنّي شعرتُ أنّ الجو في الغرفة مضغوطٌ قليلاً.

فرمقني بإحدى نظراته المتشكِّكة وقال: من الأفضل أن نبدأ العمل إذن. سأصطحبك أنا والسيِّد فيرغسون إلى الآلة في الأعلى.

- إذن من الأفضل أن أضع قبَّعتي على رأسي.

- لا داعي لذلك، فالآلة داخل المنزل.

- مـاذا؟! هـل تسـتخرج مسـحوق تبييض الثِّيـاب داخل المنزل؟

- لا، لا. إنّـه فقـط المكان الـذي نكبسـه فيـه فقـط. دعنا مـن ذلـك الآن، كل مـا نريده منـك أن تفحص الآلـة وتخبرنا ما مشكلتها.

صعدنـا إلى الـدّور الأعـلى معـاً يتقدّمنـا الكولونيـل ومعه المصباح، ووراءه المدير السّمين، وأنا خلفهما.

كان المنـزل القديـم كالمتاهـة لمـا يحويه مـن أروقـةٍ وممّراتٍ كثـيرةٍ متشـابهةٍ، ودرجٍ دائـري ضيِّـق، و أبـواب منخفضـة عتباتهـا متآكلـة نتيجـةً قدمهـا. لم يكـن هنـاك سـجّاد ولا أثر لأي أثـاث عـدا الموجـود في الطّابـق السُّـفلي، بينـما كان طلاء الجـدران قديـماً جـدّاً وقـد تقـشَّر وتسرَّبـت الرُّطوبـة لتظهـر على شكل بقع خضراء غير صحيّة.

حاولـتُ ألا أهتـم بـكل هـذا لكن تحذيـر السّـيدة لم يغب عـن بـالي رغم تجاهـلي لـه، لذلـك أصبحـتُ أكثر حـذراً من رفيقـي. بدا فيرغسـون شـخصاً كئيبـاً، مملاً وصامتاً بشـكلٍ كبـيرٍ، لكنّـي فهمـتُ من القليـل الـذي تحـدث بـه أنّـه مـن الريف الانكليزي.

توقّف الكولونيل ستارك أخيراً أمام بابٍ منخفضٍ قام بفتحه ودخل أمامي إلى غرفةٍ مربّعةٍ وصغيرةٍ لم تكن تتّسع لنا نحن الثّلاثة معاً فبقي فيرغسون في الخارج. قال ستارك: نحن الآن داخل المكبس، وسيكون من المؤسف لو قام أحد بتشغيله الآن، فسقف هذه الغرفة الصّغيرة هو في الحقيقة الجزء الهابط من المكبس. وهو يهبط بقوّةٍ عدّة أطنان على هذه الأرضيّة المعدنيّة، وفي الخارج عدة أعمدة جانبيّة صغيرة من الماء هي التي تستقبل الضّغط لتنقله وتضغطه بالطّريقة التي تعرفها.

إنَّ الآلة تبدأ العمل بسهولة، لكنّها تتحرَّك بصعوبة بعد ذلك، كما أنّها فقدت بعض قوَّة ضغطها. هل يمكنك، لو سمحت، فحصها لكي تدلّنا على طريقة إصلاح الخلل فيها؟

أخذت المصباح من يده وفحصت الآلة. كانت آلة ضخمة للغاية وقادرة على توليد كميّةٍ هائلةٍ من الضّغط، لكن عندما خرجت وضغطت الرَّوافع التي تتحكَّم بها إلى الأسفل، عرفت فوراً من خلال صوت الأزيز أنّ هناك تسرُّباً بسيطاً فيها يسمح باندفاع الماء من إحدى الاسطوانات الجانبية. وأظهر الفحص أنّ أحد الأربطة المطاطيَّة التي كانت تُحيط بقمة عمود الدَّفع قد تقلَّص بحيث لم يعد يُغلَق بإحكام التّجويف الذي يوضع فيه،

وكان واضحاً أنَّ هذا هو سبب فقدان قوَّة الضَّغط.

أوضحت الأمر للرَّجلين اللَّذين استمعا إلى ملاحظاتي بحرصٍ شديدٍ، وسألا عدّة أسئلة عملية عن الطّريقة التي يجب أن يُصلحا بها الآلة.

وعندما أوضحت لهما الأمر عدت إلى غرفة الآلة وألقيت عليها نظرة لأرضي فضولي، ولم أكن بحاجة سوى للمحة بسيطة للآلة حتّى أدرك أن موضوع كبيض الثّياب ما هو إلا مجرّد كذبة كبيرة. فمن غير المنطقي أن نفترض أنّ مثل هذا المحرِّك الضّخم مخصّص لذلك الغرض البسيط. كانت الجدران من الخشب، أمّا الأرضيّة فقد كانت عبارة عن وعاد حديدي واسع، وعندما فحصته استطعت أن ألاحظ أنّه مغطى بقشرة من الرّواسب المعدنية، فانحنيت وأخذت أكشطها محاولاً معرفتها حين سمعتُ صيحة تعجب بالألمانية ورأيت وجه الكولونيل الشّاحب ينظر إليّ من الأعلى وهو يسأل قائلا: ما تفعل هناك؟!

شعرتُ بالغضب لأنّه تمَّ خداعي بتلك القصة المختلقة عن مبيض الثّياب، فقلت: كنت أتأمّل مسحوق تبييض الملابس بإعجاب! أظن أنّه بإمكاني أن أقدّم لك نصيحة بشأن آلتك إذا ما عرفت الغرض الحقيقي الذي تُستخدم لأجله.

لكنّـي سرعـان ما ندمـتُ على تسرُّعـي بالبوح بـما بداخلي مـا إن نطقـتُ كلـماتي، فقـد علـت القسـوة وجهـه وقدحـت عينـاه الرّماديّـة شرراً وقـال: حسـناً، سـوف تعـرف عن هذه الآلة كلّ شيء.

ثـم خطـا خطـوةً إلى الـوراء وخـرج مـن الغرفـة بسرعـةٍ مغلقـاً البـاب خلفـه بالمفتـاح مـن الخـارج. أسرع إلى البـاب وأخـذتُ أجـذب المقبـض إلا أنّـه كان مغلقـاً بإحـكام فلـم أتمكّـن مـن فتحـه أو حتّـى التّأثـير عليـه ولـو قليلاً رغـم كلّ محـاولاتي. بعـد ذلـك صرخـتُ: أيُّهـا الكولونيـل، أخرجنـي من هنا.

بعـد ذلـك سـمعتُ صوتـاً جعـل قلبـي يقفز مـن الرُّعب إلى فمـي، كان صـوت صريـر الرَّوافـع وأزيـز الأسـطوانة المثقوبـة، لقـد قـام بتشـغيل المكبـس!! كان المصبـاح لا يـزال عـلى الأرض حيـث تركتـه عندمـا انحنيت لفحـص الأرضية ، فرأيـتُ عـلى ضوئـه السّـقف وهـو يتحـرّكُ ببـطءٍ نحـو الأسـفل بحركـةٍ متقطّعـةٍ، لكن بقوةٍ كبـيرةٍ قـادرةٍ، كما أعلم أنـا أكثـر من غيري، على سـحقي وتحويلي في لحظـةٍ إلى عجينةٍ لا شكل لها!



ارتميتُ على الباب وأخذتُ أطرق عليه وأصرخ متوسِّلاً كي يخرجوني من هناك وأخذتُ أشد على القفل بكل ما أوتيتُ من قوَّةٍ، لكن دون جدوى فقد تبدَّدت قواي دون فتح الباب، كما تبدَّد صوتي في ضجة محرِّك المكبس وحركة روافعه. وعندما أصبح السّقف على بعد قدم أو قدمين من رأسي فيما كنتُ واقفاً، شعرتُ كم هو سطحه صلب وقاسٍ. ثمَّ لمعت في رأسي فكرة الألم الذي سأمر به قبل أن أموت تحت ضغط هذا العملاق، فالألم سيعتمد على الوضع الذي سأكون فيه، فإذا استلقيتُ على وجهي سوف يهبط الثّقل على عمودي الفقري. اقشعرَّ بدني حين فكَّرتُ بالصّوت المريع الذي سينتج عن ذلك! قد يكون الوضع أسهل إذا استلقيتُ على ظهري، لكن هل أملك ما يكفي من الشجاعة ما يجعلني أواجه ذلك الظل الأسود القاتل وهو يقترب مني ببطء؟

كان السّقف يقترب مني أكثر فأكثر ولم أعد قادراً على الوقوف بشكل كامل وعندها وقعت عيناي على ما بعث الأمل في قلبي.

لقد أخبرتكم أنّ أرضية الغرفة من الحديد والجدران من الخشب، وبينما كنت أجول ببصري بسرعةٍ بحثاً عن

طـوق نجـاة. رأيـت بنظـرةٍ أخـيرةٍ خيطـاً دقيقـاً مـن الضّوء الأصفـر يدخـل بين لوحي خشـب، ثـمَّ أخذتُ الفتحـة التي يدخـل منهـا الضَّوء تـزداد اتّسـاعاً حين تـمَّ دفع أحـد ألواح الخشـب إلى الخلـف. للحظـة لم أصـدِّق أنَّ هناك حقـاً مخرجاً ينقـذني من المـوت المُحقّق. وفي اللّحظـة التّاليـة رميتُ بنفسي عـبره، ورقـدتُ وأنـا في شـبه غيبوبـة. كان اللَّـوح قـد انغلق بعـد خروجـه عبر الفتحـة التـي شـكّلها ليغلقها مـن جديد، إلا أنّي أدركـتُ مـن صـوت تحطّـم المصباح وقرقعـة اللّوحين المعدنيين أنني قد أفلتُ في اللّحظة الأخيرة.

عـدتُ لرشـدي عندما قام أحدهم بشـدّي مـن معصمي، ووجـدتُ نفـسي راقداً عـلى الأرض الصّخريّـة للممر الضيِّق في المنـزل، فيـما انحنـت امـرأةٌ فـوق راسي وأخـذت تشـدني بيدهـا اليسرى فيـما تحمل شـمعة باليد الأخـرى. كانت المرأة نفـس السـيِّدة الطيِّـبة التـي رفضـتُ الاسـتماع لتحذيرهـا، وصاحـت بأنفـاسٍ متقطِّعـة: تعـال، تعـال! سـوف يحضران إلى هنـا بعد لحظةٍ عندما يكتشـفان أنّك لسـتَ هنـاك. هيا، لا تُضيِّع هذا الوقت الثّمين، هيا!

هـذه المرة أخـذتُ بنصيحتها عـلى الفور، فوقفـتُ مترنِّحاً عـلى قدمـي، وركضـتُ معهـا عـبر الممـر لنهبـط بعـد ذلـك

الـدّرج الدّائـري الـذي قادنا إلى ممـرٍ عريض، ومـا كدنا نصل إليـه حتّـى سـمعنا صوت أقـدام تجـري، وصوت شـخصين يصرخـان، وأحدهما يـرد على الآخر مـن الذي كنّـا فيه، ومن الطّابـق الـذي تحته. عندها توقّفتْ مُرشـدتي وأخـذتْ تتلفّت حولهـا كمـن لا يعـرف مـاذا يفعـل وقـد أُسـقط في يـده، ثـمّ فتحـتْ بابـاً يقود إلى غرفـة نوم، بـدا القمر يتلألأ مـن نافذتها بوضـوح وقالت: إنّهـا فرصتُـكَ الوحيدة... إنّهـا عالية، لكن قد تستطيع القفز.

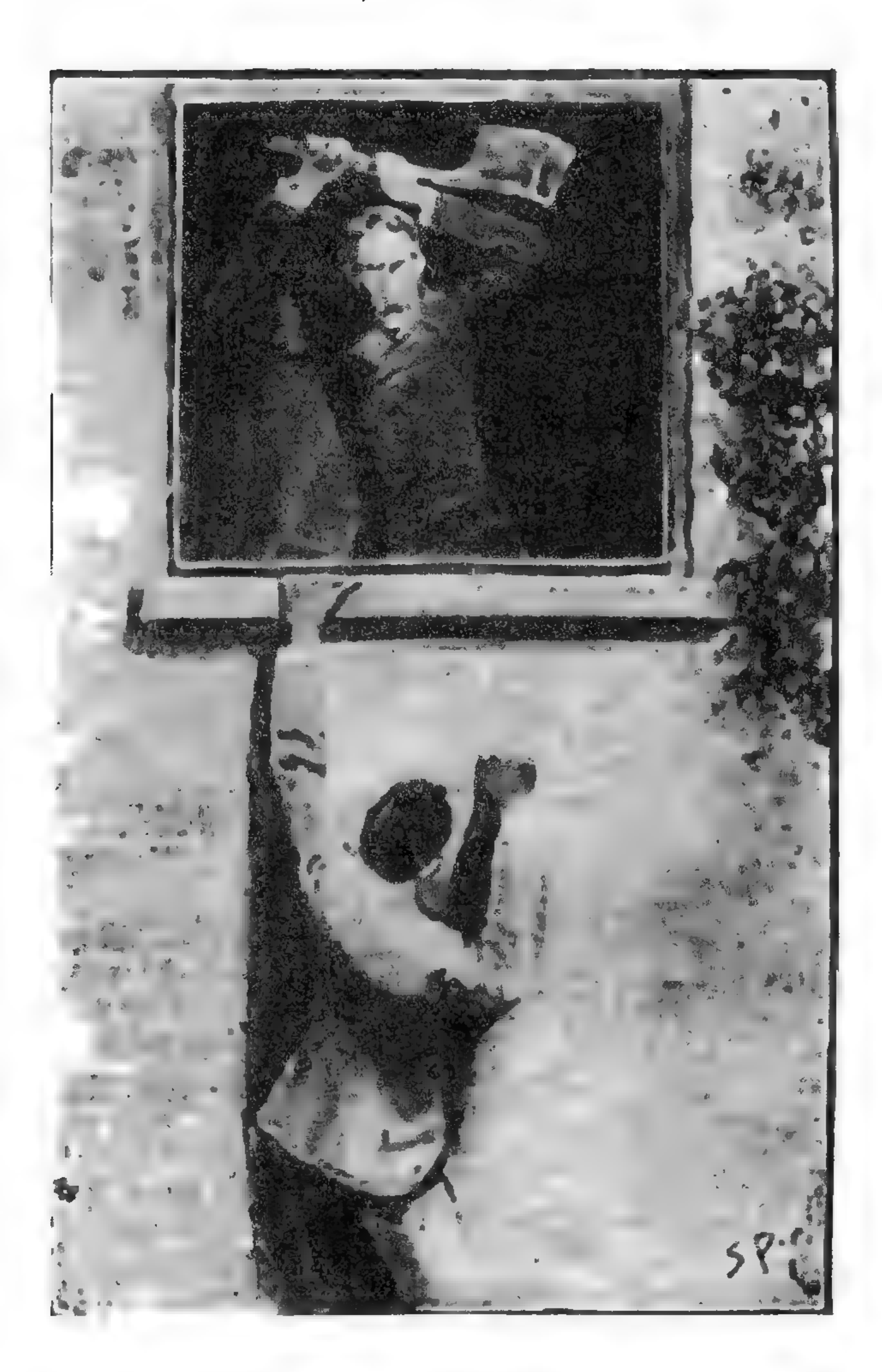
وفي نهايـة جملتهـا ومضَ ضـوء في نهاية الممـر، ورأيتُ ظل الكولونيـل سـتارك النّحيـل مسرعـاً إلى الأمـام وهـو يحمـل مصباحـاً بيـده وفي الأخـرى سـلاحاً يشـبه سـاطور الجـزّار، فأسرعـتُ عـبر غرفـة النّوم لأفتـح النّافـذة بسرعـةٍ وأنظر إلى الخـارج. آه كـم بـدت الحديقة هادئـةً وجميلةً في ضـوء القمر. لقـد توقّعـتُ أنَّ النّافـذة ترتفـع عـن الأرض بحـوالي العشرة أمتار، فتسـلّقتُ حافة النّافـذة بصعوبةٍ، لكنّي تـردّدتُ بالقفز حتّى أسـمع ما سيدور بين منقذتي والشرير الـذي يلاحقني. كنـتُ سـأعود لمسـاعدتها لـو أسـاء إليهـا بـأي طريقـةٍ ومهما كان الثّمـن. ومـا كادت هـذه الفكـرة تخطـر عـلى بـالي حتّـى وصـل هـو إلى عتبـة بـاب الغرفـة يحـاول أن يدخـل، لكنّهـا

منعَتْهُ وصاحت بالانكليزية قائلةً: فريتز! فريتز! تذكّر وعدك بعد المرّة الأخيرة، لقد وعدتني أنّ هذا لن يتكرّر مرّةً أخرى. لن يتكلّم، لن يتكلّم!

فصرخ قائلاً وهو يحاول التّملُّص منها: إنّكِ مجنونة يا أليس... سيكون في هذا دمارنا، دمارنا سيكون على يدكِ يا أليس. لقد رأى أكثر مما ينبغي. أقول لك دعيني أمر!

ثمّ دفعها جانباً وأسرع إلى النّافذة وسدّد لي ضربةً خاطِفةً بسلاحه الحاد فيما كنتُ أقفز بعد أن تعلّقتُ بحافة النّافذة، وتدلّيتُ إلى الأسفل وقد أصابني فشعرتُ بألمٍ غير مُحدّد، وارتخت قبضتي فسقطتُ على أرض الحديقة في الأسفل.

هزّني الاصطدام لكنّه لم يؤذني، فاستجمعت قواي ووقفت وأسرعت أركض بين الأشجار بأقصى ما لدي من سرعة، لأني أعلم أنّ الخطر على حياتي ما يزال قائماً. فجأة انتابني دوار وتعبتُ كثيراً فنظرت إلى يدي التي كانت تنبض بالألم ورأيت للمرة الأولى أنّ إبهامي قد قُطع وأنّ الجرح ينزف بغزارةٍ. حاولتُ ربط منديلي حوله لكنّي شعرتُ بطنينٍ في أُذني، وسقطتُ بعد لحظةٍ في غيبوبةٍ عميقة بين شجيرات الورد.



لم أعرف كم مضى من الوقت حين استيقظتُ، لكنّه كان حتماً وقتاً طويلاً جدّاً، فعندما استعدتُ وعيي كان القمر قد اختفى، وبدأتْ أشعة شمس الصّباح بالانتشار. كانت ملابسي مبلَّلةً تماماً نتيجة قطرات النّدى وأكمام معطفي تتساقط منها نقاط الدّم لكثرة ما نزف جرحي عليها. لقد ساعدني الألم الحاد الذي كنتُ أشعر به على استرجاع تفاصيل ما حدث معي ليلة أمس بسرعةٍ، فقفزتُ واقفاً على قدمي وأنا أشعر أنّي ما زلت بخطر، لكنّ دهشتي كانت كبيرةٌ حين بدأتُ أنظر حولي فلم أستطع رؤية المنزل أو الحديقة. لقد كنتُ أرقد على زاوية سياجٍ قريبٍ من الشّارع العام، ورأيتُ في الأسفل على انحدارٍ بسيطٍ مبنى طويلاً علمتُ حين اقتربتُ منه أنّه مبنى المحطّة التي وصلت إليها مساءً البارحة. ولو لا الجرح المؤلم في يدي لكان من الممكن أن يكون كل ما حدث في تلك السّاعات المروِّعة حُلماً سيِّئاً أو مجرَّد كابوس؟

توجَّهتُ إلى المحطَّة وأنا أشعر بدوارٍ خفيف، وسألتُ عن موعد رحلة الصَّباح فعرفتُ أنَّ قطاراً سيتّجه إلى ريدنغ بعد أقل من ساعة. ووجدتُ أنَّ الحمّال الموجود

بالخدمة هو نفسه الذي كان هناك عند وصولي، فسألتهُ عمّا إذا كان قد سمع باسم الكولونيل ستارك، لكن كما توقّعتُ لم يكن قد سمع به من قبل. وحين سألتَهُ إن كان قد لاحظ العربة التي كانت تنتظرني في اللّيلة السّابقة، أجابني بأنّه لم يفعل. كما سألته أيضاً إن كان يعرف مركزاً قريباً للشرطة، فأجاب بأنَّ هناك واحداً على بُعد ثلاثة أميال.

كان مركز الشرطة بعيداً جدّاً بالنِّسبة لحالتي المزرية من التّعب والضّعف، فقرّرتُ أن أنتظر حتّى أعود إلى المدينة كي أروي ما حدث معي للشرطة. وحين وصلتُ كانت الساعة قد تجاوزت السّادسة بقليل، وهكذا ذهبتُ أولاً لأضمِّد جراحي، وكان الدّكتور واطسون لطيفاً بما يكفي بحيث أحضرني إلى هنا. وها أنا أضع هذه القضية بين يديك، وسأفعل كل ما تنصحني به.

جلسنا جميعاً بصمت لبعض الوقت بعد سماع تلك القصّة الغريبة، ثمّ قام شارلوك هولمز وسحب أحد الكتب الضّخمة المألوفة التي يحتفظ فيها بقصاصات من الصحف، ثم قال: ها هو إعلانٌ قد يهمك، وقد نُشر في كل الصّحف قبل عام تقريباً. اسمع ما جاء فيه: مفقودٌ غادر السيِّد جيرمي هايلنغ منزله في السّاعة العاشرة من

مساء التّاسع من أيلول، وهو مهندس ميكانيك هيدروليكي يبلغ ستّة وعشرون عاماً، ولم تُعرف عنه أي أخبار حتّى الآن، وكان يرتدي... إلى آخره. ما رأيك؟ أظن أنَّ هذا يوضح ما حدث في المرَّة السّابقة التي أراد الكولونيل إصلاح آلته.

فصاح مريضي قائلاً: يا إلهي، هذا يوضِّح ما قالَته السَّيدة التي أنقذتني.

- بلا شك. من الواضح تماماً أنّ الكولونيل المزعوم رجلٌ باردٌ ومتهوِّر ومصمَّم على ألا يترك خلفه أي آثار تكشفه، مثل القراصنة الذين لا يتركون أي ناجين من السفن التي يستولون عليها. حسناً، كل دقيقة تمر الآن غالية جداً، لذلك سنتوجّه مباشرةً إلى إدارة شرطة سكوتلنديارد في خطوةٍ تمهيديّة للتّوجه إلى آيفورد.... إذا كنتَ تشعر بأنّك قادرٌ على ذلك.

وبعد حوالي ثلاث ساعات كنّا جميعاً في القطار المتّجه من ريدنغ إلى قرية بيركشاير الصّغيرة، وقد انضمَّ إلينا نحن الثّلاثة المفتِّش برادستريت من سكوتلنديارد، وشخصٌ آخر يرتدي ملابس بسيطة. كان برادستريت قد فتح إحدى خرائط المساحة المفصّلة للريف على مقعد أمامه، وكان مشغولاً برسم

دائرةً مُستخدماً الفرجار بحيث تكون آيفورد هي المركز وقال: ها هي الدّائرة التي رُسمَت بحيث يكون نصف قطرها عشرة أميال ومركزها القرية، المكان الذي نريده لا بد أن يكون قريباً من هذا الخط.

– لقد استغرقت الرِّحلة ساعة بالعربة وكانت تسير بسرعةٍ جيّدةٍ.

– وأنت تعتقد أنّهم أعادوك كل هذه المسافة فيما كنتَ فاقداً للوعي؟

– لا بد أنّ هذا ما فعلوه، فأنا أذكر بشكلٍ مُشوّشٍ أيضاً أنني حُملت وتمّ نقلي إلى مكانٍ ما.

فقلتُ: الأمر الذي لا أستطيع فهمه هو سبب إبقائهم على حياتك بعد أن وجدوك فاقداً للوعي في الحديقة! ربما رق قلب الشرير نتيجة توسلات المرأة.

– لا أظن أنّ هذا محتملٌ، فلم أر وجهاً أشدُ قسوةً من وجهه قط.

قال برادستريت: سرعان ما سيتّضح كل هذا. لقد رسمتُ الدّائرة، والآن أتمنّى أن أعرف في أي نقطةٍ يوجد أولئك الذين نبحث عنهم.

قـال هولـمز بهـدوء: أظـن أنّ بإمـكاني الإشـارة إلى ذلـك المكان.

فصـاح المفتّـش قائـلاً: حقـاً؟! هـل اسـتنتجتُ شـيئاً ما؟ هيـا إذن، لنـرَى مـن سـيحزر ويتّفق بالـرّأي معك. أنـا أقول إنّ الموقع في الجنوب، لأنّ المنطقة أكثر عزلةً هناك.

قال مريضي: وأنا أقول في الشّرق.

قـال الرّجل صاحـب الملابس البسـيطة: أمّا أنـا فأقول إنّه في الغرب حيث توجد عدّة قُرى هادئة.

أمّـا أنـا فقلـتُ: أظنُّـه في الشّـمال، فـلا توجد تـلالٌ هناك، وقد قال صديقنا إنّه لم يلاحظ صعود العربة على أيٍّ منها.

فصـاح المفتِّـش ضاحـكاً: هيـا. إنّ لكلِّ شـخصٍ منـا رأياً مختلفـاً تمامـاً عـن الآخـر، وهكـذا فقـد جمعنـا الاتجاهـات الأربع، فرأيُ من ستُرجِّح يا هولمز؟

- أنتم جميعاً مُخطئون.

- ولكن لا يمكن أن نكون جميعنا على خطأ!

- بل ممكن.

ثـمّ أشـار بإصبعـه إلى مركز الدّائـرة قائلاً: هـذا هو المكان الذي سنجدهم فيه.

فصاح هاثيرلي قائلاً: ولكن ماذا عن مسافة الاثني عشر ميلاً التي قطَعَتها العربة؟!

- لقد ابتعدت العربة ستة أميال ثمّ عادت أدراجها بمنتهى البساطة، فقد قلتَ بنفسك أنّ الحصان كان نشيطاً وجلده لامعاً عندما ركبتَ العربة، فكيف يكون بهذه الحال إذا كان قد قطع اثنتي عشرة ميلاً على طريق وعرة؟

قال المفتِّش وهو مستغرقٌ في تفكيرٍ عميق: فعلاً، إنّها خدعةٌ محتملةٌ، وبالطّبع فإنّ نشاط هذه العصابة معروفٌ تماماً.

فقال هولمز: بالطّبع، إنّها عصابةٌ لتزوير المال، وهم يستخدمون الآلة لصنع خليط المعدن الذي يستبدلون به العملة النّقديّة الفضيّة.

قال المفتِّش: لقد عرفنا بأمر هذه العصابة منذ بعض الوقت وتقّفينا أثرها إلى ريدنغ، لكنّنا لم نستطع الوصول إلى أبعد من تلك النقطة، فقد قاموا بإخفاء أثرهم بطريقةٍ ممتازةٍ تدلُّ على أنّهم خبراء في هذا المجال. ولكنّنا نلنا منهم الآن بفضل هذه الفرصة.

ولكنّ المفتش كان على خطأ مرّةً أخرى، فلم يكن مقدّراً لهؤلاء المجرمين أن يقعوا في قبضة العدالة.



فحين وصلنا إلى محطّة القطار في آيفورد، رأينا عموداً ضخماً من الدُّخان يتصاعد من خلف مجموعةٍ من الأشجار

في المنطقة المجاورة ويمتدُّ فوق الحقول مثل ريشة طائر عملاق، فسأل برادستريت قائلاً: هل هناك منزلٌ يحترق؟

أجاب مدير المحطة بالقول: نعم يا سيدي.

- متى شبّ الحريق؟

- سمعت أنّه بدأ خلال الليل يا سيدي، وقد انتشر حتّى التهم المبنى كله.

- ومن يملك هذا المنزل أو يقطن فيه؟

- إنّه منزل الدكتور بيشر.

فصاح المهندس قائلاً: هل الدكتور بيشر ألماني نحيلٌ جدّاً؟

فضحك مدير المحطة بقوّةٍ وهو يقول: لا، يا سيدي، فالدكتور بيشر إنكليزي، وليس هناك من هو أسمن منه في القريةِ كلِّها، لكنَّ شخصاً يقيم عنده وهو مريضٌ أجنبي كما فهمت ويبدو من شكله أن تناوله لمزيدٍ من الطّعام لن يضره فهو فعلاً نحيل.

أسرعنا جميعاً باتّجاه الحريق قبل أن ينهي مدير المحطّة حديثه، وحين اقتربنا رأينا مبنى كبيراً جداً والنّار تخرج من كل نوافذه وكان في الحديقة الأماميّة ثلاثة إطفائيين يحاولون عبثاً إخماد النّيران القويّة.

صاح هايثرلي بانفعالٍ شديدٍ: إنّه هو، فهذا هو الطّريق المعبّد بالحصى، وها هي أجمة الورد حيث رقدتُ، وتلك النّافذة هي التي قفزتُ منها.

قال هولمز: حسناً، أعتقد أنّك قد ثأرت منهم فلا شك أنّ مصباحك هو ما سبّب الحريق وأشعل جدران المكبس الخشبيّة وهم لم ينتبهوا له لأنّهم كانوا مشغولين بمطاردتك. والآن أرجو أن تنتبه بشدة وابحث عن أصدقاء الليلة الفائتة وسط الحشد، وإن كنتُ أخشى أنّهم أصبحوا على بعد مئات الأميال الآن.

وبالفعل فقد تحقّقت مخاوف هولمز، فلم يسمع أحدٌ قط منذ ذلك اليوم أي خبر عن الألماني الشرير أو الدّكتور بيشر أو السّيدة التي كانت معها. وقد قابل أحد الفلاحين في وقتٍ مبكّرٍ من صباح ذلك اليوم عربة ضمنها عدّة أشخاص تحمل معهم بعض الصناديق الضّخمة وهي تغادر ريدنغ على وجه السرعة، وهناك اختفت آثار العصابة تماماً ولم يتمكّن حتّى هولمز من العثور على ما يقود إليهم.

كانت التّعديلات الغريبة في المنزل سبب حيرة رجال الإطفاء، وازدادت حيرتهم عندما اكتشفوا عند عتبة نافذة

إحدى غرف الطّابق الثّاني إبهاماً ليد بشريّة تمّ قطعه حديثاً! وعند غروب الشّمس تكلّلت جهودهم في إطفاء الحريق بالنجاح، لكنّ سقف المنزل انهار ودمّر المكان بشكلٍ تام بحيث لم يبقَ أي أثرٍ للآلة التي كلّفت مريضي إبهامه، إضافةً إلى معاناة كبيرة ومواجهة الموت بطريقةٍ مُقزِّزةٍ. كما تمّ إيجاد كميات كبيرة من معدن النّيكل والقصدير مخزّنةً في بناء منفصلٍ عن المنزل وملحقٌ به، وإن لم يتم العثور على أي عملات معدنية وهو الأمر الذي يوضِّح سبب أخذ العصابة لصناديق ضخمة معها في فرارها.

وكانت الطّريقة التي نُقل بها المهندس من الحديقة إلى البقعة التي استعاد فيها وعيه ستبقى لغزاً بدون حل إلى الأبد لو لا التّراب النّاعم الرّطب الذي دلّنا على قصة غاية في البساطة. فقد حمله شخصان، أحدهما له قدمان صغيرتان بشكلٍ ملحوظ بعكس الآخر الذي يملك قدمان كبيرتان جداً. وقد رجّحنا أنّ الآثار تعود إلى ذلك الانكليزي البدين الصّامت (وهو الذي كان أقل جرأةً أو أقل ميلاً للعنف والقتل من رفيقه على ما يبدو) قد ساعد المرأة في حمل المهندس الغائب عن الوعي بعيداً عن الخطر.

قال المهندس بحزن حين جلسنا في مقاعدنا لنعود إلى لندن: حسناً، لقد كانت مهمة رهيبةً بالنِّسبة لي، فقد خَسرتُ إبهام يدي إضافةً إلى خسارة خمسين جنيهاً كان المفروض أن أقبضها بعد انتهاء عملي. فماذا استفدت؟

فأجابه هولمز ضاحكاً: الخبرة! لقد ربحت خبرةً جيّدًة. ربما لا يكون لها قيمة الآن، لكنّها ستفيدك كثيراً، فما عليك إلا أن ترويها لتكسب سمعةً جيدةً طوال حياتك بأنّ صحبتك مع النّاس ممتازة.

• انتهى •